منزلة السنة النبوية

دكتور
عبد المهدي عبد القادر

تظهر منزلة السنة من خلال عدة نقاط هى : ــ

١ ــ أنها وحى أوحاه الله الى نبيه وأمره بتبليغه .

٢ ــ نص القرآن الكريم على وجوب اتباعها .

٣ ــ هى بيان للقرآن الكريم ولما كان القرآن واجب الاتباع فبيانه ــ السنة ــ كذلك .

واليك تفصيل هذا الإجمال :

أولا : السنة وحى من الله الى نبيه :

السنة من وحى الله سبحانه وتعالى الى نبيه ، يدلنا على هذا .

(أ) قول الله سبحانه وتعالى «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة»(١) والحكمة هى السنة ، روى الشافعى ذلك عن أئمة ثقات . إذ قال ــ رحمه الله ــ فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر

---

(١) سورة النساء آية ١١٣ .

الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ (٢) .

(ب) وقوله سبحانه وتعالى « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ... الآية (٣) .

(ج) وقوله سبحانه وتعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .... الآية (٤) .

ومن الآيات السابقة يتضح أن الله سبحانه أوحى الى نبيه القرآن القرآن الكريم والسنة النبوية وأنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يبلغ الاثنين أمته .

وتفسير الحكمة بالسنة نقله الشافعى عن أئمة ارتضاهم فى تفسير القرآن الكريم ، وقد روى هذا التفسير - تفسير الحكمة بالسنة - عن الحسن (٥) وقتادة (٦) .

وقد جاءت أحاديث تبين أن السنة من الوحى ، من ذلك :

١ - روى عن مكحول أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتانى الله القرآن ومن الحكمة مثليه » (٧) .

٢ - وعن المقدام بن معدى كرب أنه ﷺ قال : ألا إنى أوتيت

---

(٢) الرسالة ص ٤٥ فقرة ٢٥٢ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٤ .
(٤) سورة الجمعة آية ٢ .
(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير .
(٦) أخرجه ابن جرير . وراجع الدر المنثور ج ١ ص ١٣٩ .
(٧) أخرجه أبو داود فى مراسيله .

الكتاب ومثله معه .... الحديث (٨) .

٣ - وعن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على النبى ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن (٩) .

٤ - وعن أبى أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ، أو مثل أحد الحيين ربيعة ومضر . فقال رجل : يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر (١٠) ؟ فقال : إنما أقول ما أقول (١١) .

٥ - وعن عبيد بن نضلة قال : قيل لرسول الله ﷺ - فى عام سنة - (١٢) سعر لنا يا رسول الله . قال : لا يسألنى الله عن سنة أحدثتها فيكم لم يأمرنى بها ، ولكن اسألوا الله من فضله (١٣) .

---

(٨) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٣٠ ، ١٣١ . وابن حبان فى صحيحه « الاحسان » فى المقدمة باب ذكر الخبر المصرح بأن سنن المصطفى ﷺ كلها عن الله لا من تلقاء نفسه ج ١ ص ١٧٣ ولفظه « انى أوتيت الكتاب وما يعدله »
(٩) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله ١١٧/١ رقم ٥٩٤ وأخرجه الخطيب فى الكفاية ص ٤٧ باب تخصيص السنن عموم محكم القرآن وفى الباب قبله ص ٤٤ . وذكره فى الفتح ١٣ / ٢٩١ وعزاه للبيهقى بسند صحيح ، وقال : حسان أحد التابعين من ثقات الشاميين .
(١٠) فى رواية أحمد ج ٥ ص ٢٦٧ « انما ربيعة من مضر » .
(١١) أخرجه أحمد فى المسند ٥ / ٢٥٧ ، ١٦١ ، ٢٦٧ وأخرجه كذلك الطبرانى والضياء .
(١٢) أى عام جدب .
(١٣) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير باسناد رجاله ثقات ، سوى بكر بن سهل الدمياطى فانه ضعفه النسائى ووثقه غيره ، راجع مجمع الزوائد ٤ / ١٠٠ والجامع الازهر ج ٣ ل ١٢٦ أ . وذكره فى الجامع الكبير ج ١ ص ٩٣١ وعزاه للطبرانى فى الكبير والبغوى . وذكره فى مفتاح الجنة ص ٩ وعزاه للبيهقى فى المدخل ، ولم أجده فى القدر المطبوع من المدخل .

ومن الحديث الأول والثانى يتضح أن السنة قد أوتيها ﷺ من ربه سبحانه وتعالى .

ومن الحديث الثالث والرابع يتضح أن السنة توحى إليه ﷺ من ربه سبحانه وتعالى ، وأنه لا يقولها من خاطره ، وإنما يؤمر بقولها .

ومن الحديث الخامس يتضح أنه ﷺ لا يسن ما لم يؤمر به .

والرأى من رسول الله ﷺ ليس ظنا ولا تكلفا ، وإنما هو ما يطلعه الله عليه ، وهو فى هذا يختلف عن الأمة ، وهذا معنى قول الله سبحانه (إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله .... الآية (١٤) .

ولذا روى عن ابن عباس قال : إياكم والرأى ، فإن الله قال لنبيه ﷺ « لتحكم بين الناس بما أراك الله » ولم يقل بما رأيت (١٥) .

وروى عن عمر أنه قال على المنبر : يأيها الناس إن الرأى انما كان من رسول الله ﷺ مصيبا ، لأن الله تعالى كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف (١٦) .

والوحى إليه صلى الله عليه وسلم قسمان :

(أ) إعلامى : وفيه يعلمه الله سبحانه وتعالى الشىء بكيفية من كيفيات هذا النوع وستأتى .

---

(١٤) سورة النساء الآية ١٠٥ .

(١٥) ذكره فى الدر ٢ / ٢١٩ وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم ، وراجع أعلام الموقعين ١ / ٥٤ .

(١٦) أخرجه أبو داود فى الاقضية باب فى قضاء القاضى اذا أخطأ جـ ٩ ص ٥٠٤ عون المعبود قال المنذرى : وهذا منقطع ، الزهرى لم يدرك عمر رضى الله عنه . وأخرجه البيهقى فى السنن ١٠ / ١١٧ وفى المدخل ص ١٨٩ وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٢ / ١٦٤ وكلها من رواية الزهرى عن عمر .

(ب) إقرارى : وفيه يجتهد ﷺ فى المسألة ، ويراقبه الوحى ، فان أصاب أقره والا نبهه .

كيفيات الوحى الإعلامى :

وللوحى الإعلامى كيفيات متعددة هى :

الكيفية الأولى :

أن يوحى إليه بواسطة الإلهام ، فيلقى الله فى قلبه المعانى ، مع العلم اليقينى أن هذا من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذه الكيفية هى المرادة من قول الله سبحانه وتعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » (١٧) إذ يقابلها إجمال بقية الكيفيات فى قوله سبحانه « أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » (١٨) وبهذا قال أكثر المفسرين .

الكيفية الثانية :

أن يكلمه الله سبحانه وتعالى من وراء حجاب ، فلا يرى ﷺ ربه ، وانما يسمع كلامه سبحانه وتعالى ، مع اليقين بأنه يكلمه الله تعالى ، وهذا مفهوم من قول الله سبحانه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » فقوله سبحانه « أو من وراء حجاب » هى الكيفية المذكورة هنا .

وتكليم الله نبيه ﷺ إما فى اليقظة ، كما فى ليلة الاسراء حين فرض سبحانه الصلاة ، وإما فى النوم كما فى حديث رأيت ربى فى أحسن صورة ، قال : فيم يختصم الملأ الاعلى .. ؟ الحديث (١٩) وروايات الحديث فيها ما هو أصرح من ذلك فى أنه ﷺ رأى ربه مناما .

---

(١٧) (١٨) سورة الشورى الآية ٥١ .

(١٩) أخرجه الدارمى فى الرؤيا ٢ / ٥١ رقم ٢١٥٥ مرسلا أو معضلا ، وأخرجه أحمد عن ابن عباس ومعاذ وبعض الصحابة راجع ١ / ٣٦٨ ، ٤ / ٦٦ ، ٥ / ٢٤٣ ٣٧٨ وقال فى الجامع الازهر ١ / ١٣ أ رجاله ثقات .

الكيفيـــة الثالثة :

الرؤيا الصادقة : فيرى ﷺ الشيء فى الرؤيا ، فهذا من الوحى ، اذ رؤيا الأنبياء وحى ، وهى حق كمـــا جاء ذلك فى حديث عائشـــة • أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح •• الحديث (٢٠) وواضح من قولهـــا — رضى الله عنها — « أول ما بدىء به •• من الوحى الرؤيا الصالحة » • أن الرؤيا الصالحة كيفية من كيفيات الوحى • وقد جاء ذلك مصرحا به فى أحاديث منهـــا :

— ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ « رؤيا الانبياء وحى » (٢١) •

— وما أخرجه البخارى عن عبيد بن عمير بن قتادة (٢٢) ان رؤيا الانبياء وحى ثم قرأ « انى أرى فى المنام أنى أذبحك » (٢٣) •

— وما أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير عن معاذ بن جبل قال : « ما رأى رسول الله ﷺ فى نومه ، أو يقظته فهو حق » (٢٤) •

— وما أخرجه الحاكم والطبرانى — أيضا — عن ابن عبـــاس

---

(٢٠) أخرجه البخارى فى بدء الوحى ١ / ٢٢ حديث رقم ٣ •
(٢١) ذكره فى الدر ٥ / ٢٨٠ •
(٢٢) عبيد : تابعى كبير ، وأبوه : عمير بن قتادة صحابى •
(٢٣) أخرجه البخارى فى الوضوء باب التخفيف فى الوضوء ١ / ٢٣٨ رقم ١٣٨ وفى الاذان باب وضوء الصبيان ٢ / ٣٤٤ رقم ٨٥٩ والآية رقم ١٠٢ من سورة الصافات وفى الفتح ١ / ٢٣٩ ذكر أن مسلما أخرج هذا الحديث مرفوعا ، ولم أقف عليه عند مسلم •
(٢٤) أحمد فى المسند ٥ / ٢٤٥ وراجع الخصائص ٣ / ٣٣٨ •

« رؤيا الأنبياء وحى » (٢٥) •

فرؤياه المنامية — ﷺ — حق ، لا يعتريها تلبيس أو تخبيل ، وكذا جميع الأنبياء ، تجد هذا واضحا فى قصة ذبح ابراهيم ولده ، وكيف أن ذلك كان بناء على رؤيا منامية ، وتجده أيضا فى قصة يوسف ، وأن رؤياه الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، قد تحققت بعد سنوات

قال ابن المرابط فى تفسير « الرؤيا الصالحة » هى التى ليست ضغثا ولا من تلبيس الشيطان ، ولا فيها ضرب مثل مشكل (٢٦) هـ وقوله : ولا فيها ضرب مثل مشكل • أى لا يتوقف على تأويله •

الكيفيـــة الرابعـــة :

أن يوحى اليه بواسطة الملك ، وقد تمثل له الملك رجلا ، فيكلمه بما أمر به من الوحى •

فأحيانا كان جبريل عليه السلام يأتى رسول الله ﷺ على صورة دحية الكلبى ، فيبلغه عن الله ما أمره سبحانه وتعالى به • وهذه الكيفية نادرة ، ومنها الحديث الجامع الذى أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه • قال : يا محمد أخبرنى عن الاســـلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت

---

(٢٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير تفسير ســـورة الصافات ج ٢ ص ٤٣١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى • أما رواية الطبرانى فرجالها ثقات سوى شيخ الطبرانى عبد الله بن محمـــد ابن سعيد بن أبى مريم فهو ضعيف كذا فى الجامع الازهر ج ١ ل ٢٣٧ • قلت : لكنـــه توبـــع •
(٢٦) الفتـــح ٨ / ٧١٧ •

اليه سبيلا .. الحديث (٢٧) وفى نهايته قال ﷺ : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

ومما يثبت هذه الكيفية أيضا حديث الحارث بن هشام ، فلقد سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم(٢٨) عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول (٢٩) .

وعن ابن عمر قال : وكان جبريل عليه السلام يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية ، ودحية هذا صحابى جليل ، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ خلا بدر ، وكان جميل الهيئة .

وعن أنس أن النبى ﷺ قال : كان جبريل يأتينى على صورة دحية الكلبى ، قال أنس : ودحية كان رجلا جسيما أبيض (٣١) .

---

(٢٧) أخرجه مسلم فى أول صحيحه فى كتاب الايمان الحديث الاول ١ / ١٢٨ .

(٢٨) بفتح الياء وسكون الفاء وكسر السين المهملة من الثلاثى ، أو بضم الياء وسكون الفاء وكسر السين من الرباعى ، من فسم أو أفسم ، ومعناها أقلع . وروى بالبناء للمجهول بضم أوله - الياء - وفتح الصاد ، من فصم وهى التى فى رواية البخارى التى معنا والمعنى ينجلى ويفارقنى .

(٢٩) أخرجه للبخارى فى بدء الوحى الحديث الثانى ج ١ ص ١٨ .

(٣٠) أخرجه أحمد ٢ / ١٠٧ ، وذكر الحافظ فى الاصابة ٢ / ٣٨٥ أن النسائى أخرجه أيضا باسناد صحيح . وأخرجه ابن سعد فى ترجمة دحية ج ٤ ص ٢٥٠ واسناده اسناد الامام أحمد ، التقى معه فى شيخه عفان بن مسلم . واسناد أحمد وابن سعد صحيح .

(٣١) أخرجه الطبرانى فى الاوسط وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف ، كذا فى مجمع الزوائد ٩ / ٣٧٨ . قلت : تقدم له شاهد عن ابن عمر فيجعله فى دائرة الحسن ، ويخرجه من دائرة الضعيف .

وهذه الكيفية أهون كيفيات نزول الملك عليه ، وقد جاء فى رواية هذا الحديث عند أبى عوانة « وهو أهونه على » والذى يظهر لى أنها أهون كيفيات مجىء الملك ، ولا أتصور أن تكون أخف من الرؤيا والكيفيات السابقة .

الكيفية الخامسة :

أن يوحى اليه بواسطة الملك ولا يرى الملك ، وانما يعلم بمجىء وحى بظهور علامات تدل على ذلك ، من دوى كدوى النحل ، أو صلصلة كصلصلة الجرس ، فيكلمه الملك بالوحى ، وهذه الكيفية يدل لها الحديث السابق - حديث الحارث بن هشام - وفيه قال عنها ﷺ « وهو أشده على » فهى أثقل الكيفيات ، حتى قالت عائشة عنها « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا » .

ويدل لها أيضا حديث عمر كان اذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ... الحديث (٣٢) .

والحكمة فيما يعانيه ﷺ عند نزول الوحى متعددة ، منها ما يترتب على المشقة من زيادة الأجر ، ورفعه الدرجة ، ومنها أن يتفرغ ﷺ للوحى ، وتتفرغ جوارحه لما سيلقى عليه .

ومن هذه الكيفية حديث يعلى بن أمية أن رجلا أتى النبى ﷺ وهو بالجعرانة ، وعليه جبة وعليه أثر الخلوق ، وفيه أن يعلى رآه ﷺ حال نزول الوحى محمر الوجه يغط (٣٣) . كما يغط البكر ... الحديث (٣٤) .

---

(٣٢) أخرجه أحمد ١ / ٣٤ .

(٣٣) ينفخ ، والغطيط : صوت النفس المتردد من النائم أو المغمى . فتح ٣ / ٣٩٤ .

(٣٤) أخرجه البخارى فى الحج باب غسل الخلوق ثلاث مرات ٣ / ٣٩٣ ، وفى العمرة باب يفعل بالحج ٣ / ٦١٤ وفى غير هذين .

الكيفيـة السادسـة :

أن يوحى اليه بواسطة الملك ، دون أن يرى الملك ، ودون أن يكلمه ، وانما يلقى الملك فى قلبه ﷺ ما أمر به من الوحى .

ومن هـذه الكيفيـة حـديث « ان روح القـدس (٣٥) نفث فى روعى (٣٦) أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطـلب » (٣٧) .

الكيفيـة السـابعة :

أن يوحى اليه بواسطة الملك ، وقد ظهر الملك على صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، كل جناح قد سد الأفق .

فعن ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى « فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ما أوحى » قال ـ أى ابن مسعود ـ : انه ـ أى رسول الله ﷺ ـ رأى جبريل له ستمائة جناح (٣٨) وفى رواية أخرى « له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر والياقوت » (٣٩) وفى رواية « رأى جبريل فى حلة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض » (٤٠) وفى

---

(٣٥) جبريـل .

(٣٦) « روعى » بضم الراء : قلبى وعقلى راجع النهاية لابن الاثير ، ومختـار الصحاح .

(٣٧) أخرجه الحاكم ٢ / ٤ والشافعى فى الرسالة ص ٥٣ فقرة ٣٠٦ وأبو نعيم فى الحلية ١٠ / ٢٦ ، ٢٧ ، وذكره السيوطى فى الصغير وعزاه لأبى نعيم ورمز لضعفه عن أبى أمامة وفى الفيض عزاه للطبرانى وابن أبى لدنيا والحاكم عن ابن مسعود ، ثم قال : ورواه البيهقى فى المدخل وقال منقطع فيض ٢ / ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٣٨) أخرجه البخـارى فى التفسير باب فكان قاب قوسـين أو أدنى ٨ / ٦١٠ ، ٦١١ وفى البابين بعده . وأخرجه كذلك مسلم والترمذى وغيرهم .

(٣٩) عند النسائى وابن مردويه ، كذا فى الفتح ٨ / ٦١١ .

(٤٠) رواية أحمد والترمذى وصححه .

رواية فى تفسير « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » قال ـ أى ابن مسعود ـ رأى رفرفا أخضر قد سـد الأفق (٤١) .

وفى رواية عنه ـ أى ابن مسعود ـ « أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته الا مرتين ، أما واحدة فانه سأله أن يراه فى صورته ، فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الثانية فانه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله « وهو بالأفق الاعلى » « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » قال : خلق جبريـل (٤٢) .

ومن هذه الروايات يتضح أنه ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح ، عليه حلة قد سد الأفق ، يتناثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت ، أى أن ريشه فيه من الجمال ما فيه ، فهو مزين بالعديد من الألوان من صفرة وحمرة وخضرة وبياض (٤٣) .

ومن هذه الكيفية رؤيته ﷺ جبريل فى ليلة المعراج على صـورته التى خلق عليها ، وفى هذه الليلة أبلغه جبريل عن الله ما أبلغه ، وأجابه ورافقـه .

هذه هى كيفيات الوحى الإعلامى ، منها ما هو بدون ملك ، ومنها ما فيه الملك . ومنها ما يكون فى اليقظة ، ومنها ما يكون فى النوم ، والصفة العامة فى كل هذه الكيفيات أنه ﷺ يحدث عنده علم يقينى بأن هذا من الله عز وجـل .

---

(٤١) رواية البخارى فى التفسير باب « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ٨ / ٦١١ .

(٤٢) أخرجه أحمـد والطبرى والطبرانى .

(٤٣) راجع تاج العروس ٨ / ١٧٥ والنهاية فى غريب الحديث ٥/ ٢٨٣ .

الوحى الإقــرارى :

أما الوحى الإقرارى فهو أن يجتهد ﷺ (٤٤) فى الأمر فيسلك فيه مسلكا ما ، فان كان صوابا أقره الوحى ، وان كان غير صواب نبهه الوحى وحينئذ يكون اعلاميا ، فالوحى التقريرى هو ما أقر الله سبحانه وتعالى نبيه فيه على صواب فعله من تلقاء نفســه .

فما صدر منه ﷺ من قول أو فعل أو اقرار دائر بين حالين :

(أ) حال الإيحاء ، بأن يوحى الله اليه بالأمر ابتداء فيمتثل ، أو يوحى اليه انتهاء ليعرفه سبحانه ما يتفق وشريعته ، وهــذا قليل نادر ، ومثاله ما حدث فى أسرى بــدر .

وهذه الحال الكثير الغالب ، فكثيرا ما ابتداه الوحى ، وربما سئل عن الشىء فسكت حتى جاءه الوحى ، كما فى حديث الذى أحرم وعليه جبة وخلق (٤٥) وكما فى حديث المتلاعنين (٤٦) ، وسئل عن الروح فسكت حتى نزلت الآية (٤٧) ، وسئل عن توزيع التركة فسكت حتى نزلت آية الميراث (٤٨) ، ولما أخبر النساء عن فضــل من مات له ثلاثة من الولد

---

(٤٤) الراجح – بل الصحيح – أنه يجوز للانبياء الاجتهاد ، وبهذا قال مالك والشافعى وأحمد وأبو يوسف وعبد الجبار وهو مذهب الجمهور فيجوز للنبى أن يجتهد اذا انقطع طمعه عن الوحى ، ولا يقر فى اجتهاده هذا على باطل . وراجع المحصول ٢ / ٣ / ٩ « المجتهد » والاحكام للامدى ٤ / ١٦٥ . ونهاية السول ٣ / ١٧٢ والتقرير والتحبير ٢ / ٧٩ والمغنى للخبازى ص ٢٦٤ راجع هذه الكتب وغيرها من كتب الاصول ففيها خير كثير ، ذكرت هنا خلاصته .

(٤٥) تقدمت الاشارة اليه وتخريجه .

(٤٦) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب ما يكره من التعمق والتنازع ١٣ / ٢٧٦ حديث رقم ٧٣٠٤ .

(٤٧) أخرجه البخارى فى العلم .

(٤٨) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب ما كان النبى ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحى ١٣ / ٢٩٠ رقم الحديث ٧٣٠٩ وهو عنده فى غير هــذا الموضــع .

سألته احداهن عمن مات له اثنان ، فسكت فأعادتها مرتين ، فلما أوحى اليه قال لها : واثنين واثنين واثنين (٤٩) .

(ب) حال عدم الإيحاء وذلك بتركه ﷺ وشأنه فيتصرف صوابا ، فيقره الله سبحانه وتعالى على ذلك .

وهذه الحال من مستلزمات سلامة الدين ، فما كان الله عز وجل ليترك خطأ يصدر من رسوله المبلغ عنه ، مما يترتب عليه وقوع الأمة فيه اتباعا . واذا كانت الحكمة من ارسال الرسل أن لا تكون للناس على الله حجة « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٥٠) ، فان ذلك يتم بعصمة المرسل من الوقوع فى أى خطأ ، والا نبهه ، كما فى حديث أبى قتادة أن رجلا سأل رسول الله ﷺ أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم ، ان قتلت فى سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، ثم قال رسول الله ﷺ كيف قلت ؟ قال : أرأيت ان قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر الا الدين فان جبريل – عليه السلام – قال لى ذلك (٥١) .

ولقد كان معلوما لدى الصحابة أن اقرار الرسول ﷺ اقرار من الله سبحانه وتعالى ، وأنه لو حدث أمر يخالف الاسلام لجاء الوحى فأنكر عليهم ذلك ، لقد كانوا يعرفون أن الوحى قريب وكثير ، فلن يترك أمرا مخالفا يمر ، فما أقره رسول الله ﷺ دون وحى فانما هو من الاســلام والا جــاء الوحى .

---

(٤٩) راجع حديث رقم ٧٣١٠ فى البخارى فتح البارى ج ١٣ ص ٢٩٢ كتاب الاعتصام باب تعليم النبى ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله . وراجــع الفتح ٣ / ١١٩ – ١٢١ .

(٥٠) ســورة النســاء آية ١٦٥ .

(٥١) أخرجه مسلم فى الامارة باب من قتل فى سبيل الله كفرت عنــه خطاياه الا الدين ٤ / ٥٤٨ رقم ١١٨ ، ومالك فى الجهاد باب الشــهداء فى سبيل الله ٢ / ٤٦١ رقم ٣١ .

يشهد لذلك ما روى عن جابر من قوله « كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل » قال سفيان ـ أحد رجال اسناد هذا الحديث ـ موضحا كلام جابر : لو كان شيئا ينهى عنه لنهانا عنه القرآن (٥٢) . ويظهر لى من كلام جابر هذا أن جابرا استدل على شرعية العزل بتقرير الله سبحانه وتعالى ، وعليه فجابر يرى أن الوحى لا يقتصر على مراقبة رسول الله ﷺ ، وانما يراقب الأمة كلها . فأيما فعل فعلوه مخالفا الاسلام نبه الوحى عليه ، وأيما فعل فعلوه زمن الوحى وأقرهم عليه الوحى فهو من الاسلام .

والذى يظهر لى أن هذا ـ اقرار الوحى الأمة ـ هو الذى يفيده حديث جابر الذى معنا وتفيده النصوص (٥٣) ، ففى رواية لحديث جابر (٥٤) . كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل ، ففيه تصريح بنزول الوحى مع اضافته لعهده ﷺ ، مما يشعر أنه يلحظ قضية اقرار الوحى الأمة على ما تفعل أو ينكر .

وهذا هو الذى يفيده أيضا حديث ابن عمر « كنا نتقى الكلام والانبساط الى نسائنا هيبة أن ينزل فينا شىء على عهد النبى ﷺ ، فلما مات النبى ﷺ تكلمنا وانبسطنا (٥٥) . ومنه حديث عمر حينما سأل رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يجبه فقال ـ أى عمر ـ ثكلتك أمك يا عمر ثم قال : وخشيت أن ينزل فى قرآن (٥٦) .

---

(٥٢) أخرجه مسلم فى النكاح باب حكم العزل ٣ / ٦١٧ والبخارى فى النكاح باب العزل ٩ / ٣٠٥ حديث رقم ٥٢٠٧ ـ ٥٢٠٩ .

(٥٣) وان كان ابن دقيق العبد استغربه فقال : استدلال جابر بالتقرير من الله غريب فتح ٩١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٥٤) عند البخارى فى التخريج السابق رواية رقم ٥٢٠٩ .

(٥٥) أخرجه البخارى .

(٥٦) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية ٧ / ٤٥٢ رقم ٤١٧٧ .

ومنه حديث سلمة بن صخر البياضى اذ أتى زوجته فى رمضان فقال لقومه امشوا معى الى رسول الله ﷺ ، فقالوا : لا والله لا نمشى معك ، ما نأمن أن ينزل فيك القرآن ، أو أن يكون فيك من رسول الله ﷺ مقالة يلزمنا عارها .... الحديث (٥٧) .

ومن انكار الوحى عليهم حديث زيد بن خالد الجهنى قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى اثر سماء كانت بالليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنؤ كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب (٥٨) ، وهكذا يتضح أن الوحى كان يرقب تصرفاته ﷺ ويراقب الأمة أيضا .

فأى خطأ ارتكبوه يظنونه صوابا نبههم القرآن عليه ، وربما فعلوا الشىء فسألوه ﷺ . وربما فعلوه ظانين صوابه فلم يسألوا فجاء الوحى فنبه .

ومجمل القول أن السنة وحى من الله سبحانه وتعالى الى نبيه ﷺ وهذا الوحى منه اعلامى وله كيفيات متعددة ، ومنه اقرارى يقر الله نبيه على تصرف تصرفه صوابا ، ولقد كان الوحى يرقب تصرفات الأمة أيضا ، فينبه على ما ارتكبوه من أخطاء يظنونها صوابا ، أو لم يعرفوا مخالفتها ، أما ما عرفت مخالفته ووقع فيه فاعله مدركا تقصيره ، وعالما حكمه ، فهذا ليس داخلا فى دائرة الوحى ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بالأمة .

---

(٥٧) أخرجه الدارمى فى الطلاق باب فى الظهار ٢ / ٨٦ حديث رقم ٢٢٧٨ .

(٥٨) أخرجه مسلم فى الايمان باب كفر من قال مطرنا بالنؤ ١ / ٢٥٨ رقم ١٠٩ . والبخارى فى الاذان باب يستقبل الامام الناس اذا سلم ٢/٣٣٣ رقم ٨٤٦ .

قال الشاطبى — رحمه الله تعالى — كل ما أخبر به رسول الله ﷺ من خبر فهو كما أخبر ، وهو حق وصدق معتمد عليه فيما أخبر به وعنه سواء علينا انبنى عليه فى التكليف حكم أم لا ، كما أنه اذا شرع حكما ، أو أقرأو نهى فهو كما قال عليه الصلاة والسلام ، لا يفرق فى ذلك بين ما أخبر به الملك عن الله ، وبين ما نفث فى روعه وألقى فى نفسه ، أو رآه رؤية كشف واطلاع على مغيب على وجه خارق للعادة ، أو كيف ما كان ، فذلك معتبر يحتج به ، ويبنى عليه فى الاعتقادات والأعمال جميعا ، لأنه ﷺ مؤيد بالعصمة وما ينطق عن الهوى (٥٩) .

ثانيا : نص القرآن الكريم على حجية السنة :

المتأمل لأيات القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا باتباع رسوله ﷺ ، اتباعا لا تشوبه معصية ، ولا تدخله مخالفة ، اتباع من يأتمر وينتهى ، اتباع المطيع المسلم . فيقول سبحانه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم (٦٠) .

ويقول سبحانه « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (٦١) .

ويقول سبحانه « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٦٢) .

ويقول سبحانه « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب (٦٣) .

---

(٥٩) الموافقات ٤ / ٥٢ ط محيى الدين .
(٦٠) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٦١) سورة الاحزاب آية ٣٦ .
(٦٢) سورة النور آية ٦٣ .
(٦٣) سورة الحشر آية ٧ .

ويقول سبحانه « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٤) .

وبين الله سبحانه وتعالى قدر طاعة رسوله ﷺ وذلك :

١ — قرن سبحانه وتعالى طاعة رسوله بطاعته سبحانه فقال « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ... الآية (٦٥) .

قال ابن القيم — تعليقا على هذه الآية : — فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل اعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل اذا أمر وجبت طاعته مطلقا ، سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فانه أوتى الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل ، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول ، ايذانا بأنهم انما يطاعون تبعا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع ولا طاعة (٦٦) .

٢ — جعل سبحانه وتعالى طاعة رسوله طاعة له سبحانه وتعالى فقال « من يطع الرسول فقد أطاع الله (٦٧) . فطاعة الأمة رسول الله ﷺ طاعة لله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذى اصطفاه واجتباه ، وعصمه مما يخالف أمره جل علاه .

٣ — بين سبحانه أن شأن المؤمنين السمع والطاعة له ﷺ ، وذلك فى قوله سبحانه « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم

---

(٦٤) سورة النساء آية ٦ .
(٦٥) سورة النساء آية ٥٩ .
(٦٦) أعلام الموقعين ١ / ٥٠ .
(٦٧) سورة النساء آية ٨٠ .

بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون (٦٨) ، فشأن المؤمنين طاعة رسول الله ، المبلغ عن الله ، والهادى الى صراط الله ، الذى قال الله فيه « وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله ... (٦٩) . فهو ﷺ يهدى الى صراط الله ، ومعصوم من غير ذلك .

قال الشافعى - رحمه الله - وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه ، بما افترض من طاعته ، وحرم من معصيته ، وأبان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به (٧٠) .

ثالثا : السنة تبين القرآن :

ومما يبين منزلة السنة فى الإسلام ، أن السنة تبين القرآن الكريم ، بيانا وكل الله سبحانه الى رسوله ﷺ القيام به ، وأمر الأمة أن تأخذ هذا البيان عن رسوله ﷺ .

فاذا راعينا - كما سبق - أن هذا البيان وحى ، وراعينا أن الذى يقوم به انما هو الرسول المعصوم ﷺ ، وراعينا أن الأمة مكلفة بالامتثال لما تأخذه عنه ﷺ ، اذا راعينا هذه الجوانب اتضح لنا أن السنة خير بيان للقرآن ، والأمة مأمورة بالالتزام بهذا البيان .

واليك الدليل على أنها - السنة - تبين القرآن وصورا من بيانها له .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون (٧١) . فبين سبحانه أنه أنزل الى رسوله

(٦٨) سورة النور الآية ٥٠ .
(٦٩) سورة الشورى الآيتان الاخيرتان ٥٢ ، ٥٣ .
(٧٠) الرسالة ص ٤٣ فقرة ٢٣٦ .
(٧١) سورة النحل الآية ٤٤ .

الذكر أى القرآن ليبينه للناس ، فبيان كتاب الله يؤخذ عن رسول الله ﷺ الذى جعل الله له هذا البيان .

وأيضا ففيه ﷺ من الخصائص ما يؤهله لهذا الأمر ، من ذلك :

١ - هو ﷺ الذى يأتيه الوحى من منزل الكتاب سبحانه وتعالى ، ومن كان كذلك كان الحقيق ببيان هذا الكتاب .

ومن هنا كان الصحابة اذا أشكل عليهم شىء من القرآن سألوه ﷺ ، لعلمهم بأنه الذى يوحى اليه ، فهو الحقيق ببيانه .

٢ - هو ﷺ أدرى الناس بكتاب الله سبحانه وتعالى ، فهو المختار لتحمله وتبليغه ، ولا يكون ذلك الا لمن أهل له . وكم كان البيان من القرآن للقرآن ، فلما نزل قول الله سبحانه وتعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (٧٢) .فهم الصحابة الظلم على اطلاقه ، ومن هنا استثقلوا ، فسألوه ﷺ فبين لهم أن المراد بالظلم فى الآية انما هو الشرك كما هو مبين فى آية أخرى .

أخرج البخارى عن عبد الله - رضى الله عنه - قال : لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس ذلك ، انما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه « يا بنى لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم » (٧٣) .

وكم كان البيان من فهم يدق على غيره ﷺ ، من ذلك أنه حدثهم عن الخيل وأنها لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فسألوه

(٧٢) سورة الانعام الآية ٨٢ .
(٧٣) أخرجه البخارى فى أحاديث الانبياء باب قول الله تعالى « ولقد آتينا لقمان » ج ٦ ص ٤٦٥ رقم ٣٤٢٩ وقول الله تعالى « يا بنى لا تشرك بالله .. الآية من سورة لقمان آية ١٣ .

عن الحمر أتكون أجرا ، وسترا ، ووزرا ؟ فأجابهم ﷺ بما فهم من آية لا يتطرق الى الفهم أنها تفيد شيئا فى الحمر ، اذ قال لهم ما أنزل على فيها الا هذه الآية الجامعة الفاذة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٧٤) .

وخير ما يوضح هذا كلام ابن مسعود اذ قال : ما من شىء الا بين لنا فى القرآن ، ولكن فهمنا يقصر عن ادراكه ، فلذلك قال تعالى « لتبين للناس ما نزل اليهم » (٧٥) .

٣ — هو ﷺ أدرى الناس بلغة القرآن ، فهو ﷺ قرشى ، نشأ فى بادية بنى سعد المشهورة بالفصاحة والبيان ، حتى قال ﷺ : أنا أعرب العرب ، ولدت فى قريش ، ونشأت فى بنى سعد ، فأنى يأتينى اللحن (٧٦) .

وليس الأمر قصرا على ذلك — كونه قرشيا تربى فى بنى سعد — وانما زاد عن ذلك أن الله سبحانه علمه هذه اللغة — لغة القرآن — فكان يعرف كل لهجات القبائل ، ويحدثهم بلغتهم ، حتى بهر ذلك من أطلع عليه من الصحابة .

فعن ابن عمر قال : « قال عمر يا نبى الله مالك أفصحنا ؟ فقال النبى ﷺ : جاءنى جبريل فلقننى لغة أبى اسماعيل » (٧٧) .

---

(٧٤) أخرجه البخارى عن ابى هريرة فى الجهاد باب الخيل لثلاثة ج ٦ ص ٦٣ رقم ٢٨٦٠ وفى غير هذا الموضع .

(٧٥) ذكره فى مفتاح الجنة ص ١٦ وعزاه لابن أبى حاتم .

(٧٦) أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه ابن سعد بنحوه عن زكريا بن يحيى ابن يزيد السعدى عن أبيه . قال فى الجامع الكبير ١ / ٣٢٧ معضلا .

(٧٧) أخرجه أبو نعيم فى تاريخ اصبهان بسند ضعيف . راجع المقاصد الحسنة ص ٢٩ ، ٣٠ رقم ٤٥ .

وهكذا يتضح لنا أن الله سبحانه ذكر فى كتابه أن بيان القرآن موكول له ﷺ تتضمنه سنته ، ويتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى نبيه ﷺ من الخصائص ما يجعله أقدر الناس على بيان القرآن الكريم .

على أن المتأمل للقرآن الكريم والسنة النبوية يجد البيان واقعا ملموسا ، فيجد مثلا أن الله سبحانه قد أمرنا فى القرآن باقام الصلاة ، وليس فى القرآن بيان لعدد الركعات ، ولا لأول الوقت ولا لآخره ، كما أنه ليس فيه بيان لكيفية الصلاة ، وكل هذا نجده مبينا فى السنة ، فلقد وضح ﷺ ذلك ، وفوق ذلك ، وقال : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» (٧٨) . وما يقال عن الصلاة يقال عن الصيام ، والزكاة ، والحج ، فبين ﷺ كل ذلك وقال « لتأخذوا مناسككم (٧٩) .

والمتأمل يجد أن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق ، فقال سبحانه « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (٨٠) . ولم يبين سبحانه مقدار الشىء الذى تقطع فيه اليد ، كما لم يبين من أين تقطع اليد ، فجاءت السنة فبينت كل ذلك (٨١) .

---

(٧٨) أخرجه البخارى فى الاذان باب الاذان للمسافر اذا كانوا جماعة .. الخ ج ٢ ص ١١١ حديث ٦٣١ وأخرجه أيضا فى الادب باب رحمة الناس والبهائم ١٠ / ٤٣٧ حديث ٦٠٠٨ عن مالك بن الحويرث ، وأخرجه كذلك الدارمى وأحمد .

(٧٩) أخرجه مسلم فى الحج باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكبا .. الخ ج ٢ ص ٩٤٣ حديث ٣١٠ / ١٢٩٧ . واللام فى قوله ﷺ « لتأخذوا » للامر كذا قال النووى . وأخرجه أبو داود فى المناسك باب فى رمى الجمار ٥ / ٤٤٥ عون المعبود كلاهما عن جابر ، وأخرجه كذلك النسائى ، وأحمد ٣ / ٣١٨ ، ٣٦٦ .

(٨٠) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٨١) راجع الموافقات للشاطبى ٣ / ١٩٦ المسألة الاولى فى البيان والاجمال .

ولذا فان استفسارات وجهت لبعض الصحابة،لم لا تكون أحاديثكم بالقرآن ؟ فكان الجواب : لقد أردنا بيان القرآن ، وبيانه السليم القويم ما جاء على لسان الرسول المعصوم ، فما الأحاديث التى نحدثكم بها الا البيان السليم للقرآن ، لا أنها غير القرآن .

من هذه الاستفسارات ورد أن عمران بن حصين رضى الله عنه ذكر الشفاعة فقال : رجل من القوم : يا أبا نجيد انكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلا فى القرآن ؟ فغضب عمران ، وقال للرجل : قرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعا ، ووجدت المغرب ثلاثا ، والغداة ركعتين ، والظهر أربعا ، والعصر أربعا ، ووجدت المغرب فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه ، وأخذناه عن رسول الله ﷺ ؟ أوجدتم فيه من كل أربعين شاة ، وفى كل كذا بعير كذا ، وفى كل كذا درهم كذا ؟ قال : لا ، قال فعن من أخذتم ذلك ؟ أستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبى ﷺ ؟ وقال : وجدتم فى القرآن « وليطوفوا بالبيت العتيق » أوجدتم فيه فطوفوا سبعا ، واركعوا ركعتين خلف المقام ؟ أوجدتم فى القرآن لا جلب ولا جنب ولا شغار فى الاسلام ؟ أما سمعتم الله قال فى كتابه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ قال عمران : فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم (٨٢).

وهذا أيضا ما فهمه ابن مسعود حينما اعترضت عليه امرأة فى لعنه الواشمات وسيأتى (٨٣) .

---

(٨٢) ذكره بهذا اللفظ فى مفتاح الجنة ص ٦ وعزاه للبيهقى فى المدخل الصغير . وأخرجه الحاكم فى المستدرك ١ / ١٠٩ بنحوه ، وفيه أن الرجل قال لعمران بن حصين : أحييتنى أحياك الله . وأن الحسن قال : فما مات هذا الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين . وأخرجه الخطيب فى الكفاية باب تخصيص السنن لعموم محكم الكتاب ص ٤٨ . وأخرجه أبو داود مختصرا فى الزكاة باب ما تجب فيه الزكاة ٩ / ١٣١ المنهل العذب المورود وعزاه فى الشرح الى البيهقى فى البعث وأظن الصواب أنه فى المدخل . وذكره فى مفتاح الجنة ص ٢٠ وعزاه للبيهقى فى المدخل الكبير والحاكم .

(٨٣) سيأتى هذا - ان شاء الله تعالى - فى الرد على شبهة من قال : كيف تكون السنة قد جاءت بما ليس فى القرآن .

وقال رجل عند مطرف بن عبد الله لا تحدثونا الا بما فى القرآن . فقال مطرف : انا والله ما نريد بالقرآن بدلا ، ولكننا نريد من هو أعلم بالقرآن منا (٨٤) .

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « سيأتى أناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فان أصحاب السنن أعلم بكتاب الله » .

ويقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « سيأتى قوم يجادلونكم فخذوهم بالسنن ، فان أصحاب السنن أعلم بكتاب الله (٨٥) .

أوجه بيان السنة للكتاب :

قال الامام الشافعى فى رسالته (٨٦): فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان :

أحدهما :

ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب .

والآخر :

ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد ، وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث :

ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب ، فمنهم من قال جعل الله بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب .

---

(٨٤) أخرجه البيهقى فى المدخل كذا فى مفتاح الجنة ص ٢١ .

(٨٥) الاحكام فى أصول الاحكام لابن حزم ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٨٦) ص ٥٢ ، ٥٣ .

ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولها أصل فى الكتاب ، كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وقال « وأحل الله البيع وحرم الربا » فما أحل وحرم فانما بين فيه عن الله كما بين الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثبتت سنته بفرض الله .

ومنهم من قال : ألقى فى روعة كل ما سن . وسنته الحكمة : الذى ألقى فى روعه عن الله ، فكان ما ألقى فى روعه سنته .

ثم ذكر الشافعى أثرا يفيد أن السنة مما ألقى الله فى روع رسوله ﷺ فقال : أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله ﷺ « ان الروح الأمين قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب (٨٦) . » ثم قال الشافعى : فكان مما ألقى فى روعه سنته ، وهى الحكمة التى ذكر الله ، وما نزل به عليه كتاب الله ، وكل ما جاءه من نعم الله كما أراد الله وكما جاءته النعم تجمعها النعمة وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق أ . هـ كلام الشافعى (٨٧) .

---

٨٦ - تقدم تخريجه .

٨٧ - ورحم الله الشافعى . وراجع الموافقات للشاطبى ٤ / ٩ - ٤٧ فلقد أجاد - رحمه الله - فى هذه المسألة وأفاد ، ولقد استفاد منه فضيلة الشيخ أبو زهرة فاختصر هذا المبحث منه فى كتابه « الحديث والمحدثون » ص ٣٧ - ٤٥ ، واستفاد منه كذلك الشيخ مصطفى السباعى فى كتابه « السنة ومكانتها فى التشريع » ص ٣٧٩ - ٣٩٨ فيمكنك مراجعة أى مصدر من هذه المصادر فى هذا المبحث .

قلت : مثال : الوجه الأول :

الآيات الآمرة بالصلاة والصوم والزكاة والحج مع حديث « بنى الاسلام على خمس .. الحديث . وكذلك قول الله سبحانه « وعاشروهن بالمعروف » جاء حديث « اتقوا الله فى النساء » مؤيدا لهذه الآية .

ومثال الوجه الثانى :

(أ) الأحاديث التى تفصل مجمل القرآن ، كالآحاديث التى تفصل أحكام الصلاة التى جاء الأمر بها مجملا . وكذلك الصيام والحج .

(ب) الأحاديث التى تقيد مطلق القرآن ، كالأحاديث التى قيدت آية « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » قيدت السارق بأنه الذى يسرق ربع دينار من حرز المثل ، وقيدت القطع بأنه من الكوع ، ويبدأ باليمنى .

(ج) الأحاديث التى تخصص عام القرآن ، كأحاديث الزكاة التى قيدت آية « خذ من أموالهم صدقة » قيدتها بأن الأموال التى تؤخذ منها الزكاة هى ما بلغ النصاب لا مطلق مال .

(د) الأحاديث التى توضح بعض معانى القرآن : كتفسير الظلم فى قوله سبحانه « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » بأنه الشرك . وتفسير الحساب اليسير فى قوله سبحانه « فسوف يحاسب حسابا يسيرا » بأنه العرض .

ومثال الوجه الثالث :

١ - حل ميتة السمك والجراد ، وحل الكبد والطحال .

٢ - الحكم بأن ذكاة الجنين ذكاة أمه .

٣ - تحريم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطيور ، والحمر الأهلية .

٤ - تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، والعكس . وبين المرأة وخالتها ، والعكس .

٥ - تغريب الزانى غير المحصن ، ورجم المحصن .

٦ - حرمان الكافر من ميراث قريبه المسلم ، وكذا حرمان القاتل والرقيق .

٧ - صدقة الفطر .

٨ - القضاء بالشاهد واليمين .

ومما زادته السنة أيضا :

٩ - القصص التى للترغيب والترهيب كقصة الأقرع والأبرص والأعمى ، وقصة الثلاثة الذين التجأوا الى الغار (٨٧) .

وبعد فلعله بعد مناقشة هذه القضايا الثلاث :

- السنة وحى من الله تعالى .
- أمر القرآن الكريم باتباع السنة .
- السنة تبين القرآن الكريم .

تكون قد اتضحت منزلة السنة ، وأنها فى منزلة القرآن الكريم ، اذ مصدرها الوحى ، وهى بيان له ، والأمة ملزمة بها بنص القرآن الكريم .

ولقد بين ﷺ أيضا أن على الأمة أن تمتثل كل ما جاءت به السنة ، اذ يقول ﷺ « ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » (٨٨) .

---

(٨٧) راجع المصادر السابقة فى موضوع زيادة السنة على الكتاب ، وآراء العلماء فى ذلك ، وهل زيادتها بيان للقرآن ، أو استقلال بأحكام ؟ .

(٨٨) أخرجه الحاكم ج ١ ص ١٠٨ ، ١٠٩ وابن حبان ج ١ ص ١٧٣ حديث رقم ١٢ ، والترمذى وابو داود وابن ماجه وأحمد والخطيب فى الكفاية باب ما جاء فى التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنته ﷺ ص ٣٩ ، ٤٣ والشافى فى الرسالة ص٥١ .

وقال ﷺ أيضا « آتانى الله القرآن ومن الحكمة مثليه » (٨٩) .

وقال أيضا ﷺ ، مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه ، فأن لم يكن فى كتاب الله فسنة منى ماضية (٩٠) .

بل حذر ﷺ من ترك سنته فقال « ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبى مجاب الدعوة ، الزائد فى كتاب الله ، والمكذب بقدر الله المتسلط بالجبروت ليذل بذلك من أعز الله ، والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله والتارك لسنتى (٩١) .

ومن ثم نجد صدر الأمة كانو حريصين على تمام الامتثال لسنته ﷺ ، فلا يزيدون شيئا ، ويحرصون على الكمال .

فها هو طاووس يصلى بعد العصر ركعتين فيقول له ابن العباس : اتركهما فيقول : ما أدعهما . فيقول ابن عباس : فانه قد نهى النبى ﷺ عن صلاة بعد العصر ، ولا أدرى أتعذب أم تؤجر ؟ لأن الله قال: « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (٩٢) .

ويقول أيوب السختيانى : اذا حدثت الرجل بسنة فقال : دعنا من هذا ، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال (٩٣) .

---

(٨٩) تقدم تخريجه .

(٩٠) أخرجه الخطيب فى الكفاية باب ما جاء فى تعديل الله ورسوله للصحابة ص ٩٥ والبيهقى فى المدخل ص ١٦٢ رقم ١٥٢ .

(٩١) أخرجه الحاكم ١ / ٣٦ ، ٢ / ٥٢٥ ، ٤ / ٩٠ - وصححه - والطبرانى والبيهقى فى المدخل .

(٩٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب ما يتقى من تفسير حديث النبى ١ / ٩٥ رقم ٤٤٠ ، وأخرجه البيهقى والحاكم كذا فى مفتاح الجنة ص ١٩ وهو عند الحاكم فى العلم باب انما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله ج ١ ص ١١٠ وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبى .

(٩٣) أخرجه البيهقى ، كذا فى مفتاح الجنة ص ٢١ . وأخرجه الخطيب فى الكفاية باب تخصيص السنن ص ٤٩ .

وقال الإمام مالك « السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق . ويقول الإمام الشافعى « اذا وجدتم لرسول الله ﷺ سنة فاتبعوها ولا تلتفتوا الى قول أحد (٩٤) .

وحدث الإمام الشافعى بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له رجل يا أبا عبد الله أتأخذ بهذا ؟ فقال : أرأيتنى خرجت من كنيسة ! ترى على زنارا حتى لا أقول به (٩٥) .

وقال مرة أخرى : متى عرفت لرسول الله ﷺ حديثا ولم آخذ به فأنا أشهدكم أن عقلى قد ذهب (٩٦) .

وسأل رجل الإمام الشافعى عن حديث فقال : هو صحيح . فقال له الرجل : فما تقول ؟ فارتعد وانتفض وقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى اذا رويت عن النبى ﷺ وقلت بغيره (٩٧) .

ويسوون بين السنة والكتاب :

فها هو أبو هريرة رضى الله عنه يقول « ان الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان من كتاب الله ما حدثت حديثا ، ثم تلا « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب » و « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » وان اخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وأخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وان أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون (٩٨) .

---

(٩٤) أخرجه فى الحلية ٩ / ١٠٧ .
(٩٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ج ٩ ص ١٠٦ .
(٩٦) آداب الشافعى ومناقبه ص ٦٧ ، ٩٣ ومعرفة السنن والآثار ص ١٤٥ ، والمدخل الى السنن ص ٢٠٥ . والحلية ٩ / ١٠٦ .
(٩٧) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ص ١٠٦ .
(٩٨) أخرجه فى جامع بيان العلم ج ١ ص ١١٦ . وقد أخرجه البخارى فى العلم باب حفظ العلم ج ١ ص ٢١٣ رقم ١١٨ .

قال أبو عمر بن عبد البر « فى هذا الحديث من الفقه معان عدة :

منهـا : أن الحديث عن رسـول الله ﷺ حكمه حكم كتاب الله المنزل .

ومنهـا : اظهار العلم ونشره وتعليمه .

ومنهـا : ملازمة العلماء والرضى باليسير للرغبة .

ومنهـا : الإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وبكسبها (٩٩) .

أوجـه تضمن القرآن السـنة :

والسـنة وان كانت قد زادت بعض أحكام ومواعظ على القرآن الكريم ، فانها لم تخرج من دائرته ، وانما هى بيان وتفصيل له ، وهو متضمن لكلياتها بأوجه . وعليه فلا يقول قائل كيف تكون السنة قد جاءت بما ليس فى القرآن ، وقد قال الله « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (١٠٠)؟ وكيف تكون بيانا للقرآن وقد قال الله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » (١٠١) ؟ لأن هذا يجاب عليه بأن السنة — وان زادت بعض أشياء — لم تخرج عن دائرة الكتاب ، اذ هو يتضمنها بأحد الأوجـه التاليـة :

الأوجـه الأول :

أن القرآن دل على وجوب العمل بالسنة ، فكل عمل بما جاءت به السنة عمل بالقرآن . وهذه الطريقة كما ترى طريقة عامة ، وممن أخذ بها عبد الله ابن مسعود ، فقد روى أن امرأة من بنى أسد أتته فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت الواشمات والمستوشمات ، والمتنصمات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ؟ فقال : ومالى لا ألعن من لعنه

---

(٩٩) جامع بيان العلم ج ١ ص ١١٦ .
(١٠٠) الانعـام الآية ٣٨ .
(١٠١) النحـل الآية ٨٩ .

رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ! فقال : لئن كنت قرأتيه لوجدتيه ، قال الله عز وجل « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (١٠٢) .

ومن ذلك أن عبد الرحمن بن يزيد رأى محرما عليه ثيابه فنهاه ، فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه ... الآيــة » .

الوجــه الثــانى :

أن الكتاب مجمل والسنة مفصلة له ، كالأحاديث الواردة فى بيــان ما أجمل ذكره من الأحكام اما بحسب كيفيات العمل ، أو أسبابه أو شروطه أو موانعه أو لواحقه أو ما أشبه ذلك ، فبيانها للصلوات على اختلافها فى مواقيتها وركوعها وسجودها وسائر أحكامها ، وبيانها للزكاة فى مقاديرها وأوقاتها ونصب الأموال المزكاة ، وبيان أحكام الصــوم مما لا نص عليه فى القرآن ، وكذلك أحكام الحج ، والذبائح ، والأنكحة وما يتعلق بها ، والبيوع وأحكامها ، والجنايات من القصاص وغيره ، مما وقع بيانا لما أجمل فى القرآن ، وهو الذى يظهر دخوله تحت قوله تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

الوجــه الثالث :

أن السنة لم تتعد مقاصد التشريع القرآنى ، فان القرآن جــاء لإسعاد البشرية فى دنياها وآخرتها ، والسنة لم تتعدهذا ، وانما اشتركت مع القرآن فى تحقيق هذا الهدف السامى بشىء من البيان والشرح ، وذلك أن القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلبا لها ، والتعريف بمفاســدها دفعا لهــا ، والمصــالح تنحصر فى الضروريات والحاجيات والتحسينات ومكملاتها ، والسنة لا تزيد على تقرير هذه الثلاثة ، غير أن الكتاب يأتى بها أصولا يرجع اليها ، والســنة أتت بها تفريعا على

(١٠٢) أخرجه البخارى ومسلم واحمد وغيرهم .

الكتاب ، وبيانا لما فيه منها ، فلا تجد فى السنة الا ما هو راجع الى هذه الأقســام (١٠٣) .

الوجــه الرابع :

أن القرآن قد ينص على حكمين متقابلين ، ويكون هنالك ما فيه شبه بشكل واحد منهما ، فتأتى السنة وتلحقه بأحدهما ، أو تعطيه حكما خاصا يناسب الشبهين .

وقد ينص القرآن على حكم بشىء لعلة فيه ، فيلحق به الرســول ﷺ ما وجدت فيه العلة عن طريق القياس .

فمثــال :

ما أشبه حكمين متقابلين وألحقته السنة بأحدهما ما يلى : —

حرم الله الميتة وأباح المذكاة — أى المذبوح — فدار الجنين الخارج من بطن المذكاة ميتا بين الطرفين فاحتملهما ، فاذا راعينا أنه جزء من مذكاة فهو حلال ، وان راعينا استقلاله فهو حرام . فجاءت السنة فألحقته بالمذكاة ، كما قال ﷺ « ذكاة الجنين ذكاة أمــه » .

ومثــال :

ما أشبه حكمين متقابلين وأعطته السنة حكما خاصا يناسب الشبهين مــا يلى :

أحل الله النكاح ، وملك اليمين ، وحرم الزنا . وسكت عن النكاح المخالف للشرع فانه ليس بنكاح محض ولا ســفاح محض ، فجــاء فى السنة « أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فان دخل بها فلها المهر بما استحل منها » .

(١٠٣) راجع الموافقات ٤ / ١٩ — ٢٢ و ٢ / ٤ .

ومثال ما نص القرآن عليه لعلة فألحقت السنة به ما توافرت فيه العلة عن طريق القياس ما يلى :

حرم الله الجمع بين الأختين فى النكاح ، وجاء فى القرآن « وأحل لكم ما وراء ذلكم » فجاء نهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس ، لأن المعنى الذى لأجله ذم الجمع بين الأختين موجود هنا ، وهو ما عبر عنه فى الحديث « فانكم اذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » والتعليل يشعر بوجه القياس .

الوجه الخامس :

إرجاع كل ما فى السنة من الأحكام التفصيلية الى الأحكام التفصيلية فى القرآن الكريم ، مثال ذلك :

طلق عبد الله بن عمر زوجته وهى حائض فقال النبى ﷺ لعمر « مره فليراجعها ثم يتركها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، ثم ان شاء أمسك بعد ، وان شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » يعنى أمره فى قوله تعالى « يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » وهذا الوجه لا يمكن أن يوف ، وقد قال الشاطبى بذلك .

هذه هى أهم الأوجه التى سلكها الأئمة لبيان أن السنة بيان للقرآن، وكل ما زادته السنة لن يخرج عن أحد هذه الأوجه أوكلها (١٠٤) ، وأعم هذه الأوجه وأشملها الوجه الثالث .

عرض السنة على الكتاب :

قد يقول قائل : كيف تأتى السنة بجديد ، وقد قال ﷺ « ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله »

(١٠٤) راجع الموافقات ٤ / ١٧ - ٣٤ المسألة الرابعة من مسائل الدليل الثانى « السنة » وفى هذا المرجع وجوه أكثر مما ذكرت هنا وأمثلة أكثر بكثير .

قلت : أعداء الاسلام فى هذا الزمن يتصيدون أدلتهم من التراث الاسلامى ولا يكلفون أنفسهم شيئا ، الا أنهم قد تخصصوا فى الخيانة العلمية ، فان الكتب الاسلامية جرى مؤلفوها على تصوير الشبهة ، ثم الاجابة عليها ، فهؤلاء يجمعون الشبه ويتركون الاجابة عليها ، فهذا الاعتراض الذى يردده أعداء الاسلام اليوم هو اعتراض قديم ، وقد وجه للامام الشافعى فأجاب عليه فى رسالته .

سئل : أفنجد حجة على من روى أن النبى ﷺ قال : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله (١٠٥) ؟

قال فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شىء صغر ولا كبر ، فيقال لنا قد ثبتم حديث من روى هذا فى شىء . وهذه أيضا رواية منقطعة عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية فى شىء .

سئل فهل عن النبى ﷺ رواية بما قلتم ؟

قال : فقلت له : نعم ، أخبرنا سفيان، قال أخبرنى سالم أبو النضر، أنه سمع عبيد الله ابن أبى رافع يحدث عن أبيه أن النبى ﷺ قال : لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه .

(١٠٥) هذا الحديث سئل عنه الحافظ ابن حجر فقال : انه جاء من طرق لا تخلو من مقال . المقاصد ص ٣٦ ، ٣٧ . وقد جمع طرقه البيهقى فى كتاب « المدخل » وبين ضعف كل طريق . راجع مقدمة المعرفة ص ٢٤ ، ٢٥ ونقل ابن الجوزى فى الموضوعات ١ / ٢٥٨ عن الخطابى أن هذا الحديث وضعته الزنادقة وأنه باطل لا أصل له . وسيأتى كلام الشافعى عنه نقلا عن « الرسالة » . وقال محقق المقاصد : واستوعبت طرقه فى كتاب « الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج » للبيضاوى، وبينت بطلانه من جميع طرقه .. الخ .

قال : فقد ضيق رسول الله ﷺ على الناس أن يردوا أمره ، بفرض الله عليهم اتباع أمـره (١٠٦)•

قلت : وهذا الحديث نفسـه يعارض القرآن ، فكيف لا نقبل من رسول الله ﷺ الا ما كان فى القرآن والله يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ويقول « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ولو كانت طاعة الرسول محددة باطار القرآن لبين القرآن ذلك ، ولما أطلق الأمر بالطاعة فكيف وقد أطلقه ؟ بل أنه جعل طاعة الرسول طاعة لله سبحانه وتعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ونفى الايمان عمن لم يرض حكمه ﷺ بنفس طيبة « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

وسوف أناقش هدف أعداء الاسلام من حملتهم المسعورة على السنة فى العنوان التالى ان شاء الله تعالى ، وأسأل الله الكريم من فضله التوفيق والسداد والرشـاد •

ثبـوت السـنة :

ظهر فى هذه الآونة الأخيرة من ينكر قدر السنة ، ويدعو الى تركها محتجا بأن أحاديثها ليست ثابتة كلها أو بعضها •

وهذا النوع من الناس غذته ثقافة الحادية ، وجدت طريقها الى المثقفين ثقافة مادية عن طريق بعض الملاحدة والمستشرقين ، ومغزى هذه الثقافة أن القرآن ذو حساسية خاصة عند المسلمين ، فلا يمكن مساس العقيـدة من جهته بادىء ذى بدء • فاتجه هؤلاء الى السنة يريدون القضاء عليها ، حتى يصبح القرآن فى حاجة الى ما يبينه ، فاما تبينه أهواؤهم ، وأما يترك على أنه أثر دين قد انمحى •

(١٠٦) الرسالة ص ١٠٤ ، ١٠٥ فقرات ٦١٧ ـ ٦٢٣ •

واتخذ هؤلاء فى سبيل القضاء على السنة طرقا مختلفة ، فراحوا ينشرون مزايا السنة على أنها عيوب ، فان السنة قد دون الصحيح منها على حده ، كما دون الحسن والضعيف على حدتهما ، كما دون الموضوع على حده • وهذه مزية للسنة لم يصل اليها أى علم من العلوم ، فان وجود من يدافع عن السنة مع قدرته على تمييز الأصل من الزيف لهو من أعظم مزايا السـنة •

الا أن أعداء الاسلام استطاعوا أن يصوروا هذه المزية على أنهـا عيب •• فراحوا يقولون ان السنة فيها الضعيف والموضوع ، وأشاعوا هذا بين المسلمين ، والعامة من المسلمين لا يعرفون تاريخ سـنة نبيهم ﷺ ، فظنوا أن السنة فيها الضعيف والموضوع دون تمييز ، ولو أن المسلمين قد درسوا تاريخ سنة نبيهم لعلموا أنها فى صحتها وثبوتها تفوق أى علم من العلوم وأى مصدر من مصادر الأديان الأخرى ، ولعلموا أن وجود الضعيف فى السنة أقوى دليل على ثبوتها وقوتها •

وراح أعداء الاسلام أيضا يجرحون رواة الحديث ، خاصة المشاهير منهم ، ولو علم المسلمون تاريخ هؤلاء الرواة لما شاع لأعداء الاسلام قول ، ولما قبل منهم خبر •

وراحوا يذكرون الأحاديث التى ظاهرها التعـارض ، ولو عـلم المسلمون معانى هذه الأحاديث لما أشكل ذلك عليهم •

راح أعداء الاسلام الى كل ناحية يظنون أنه يمكنهم النيل من السنة بواسطتها ، وساعدهم على ذلك جهل العامة من المسلمين •

ولا سبيل لردع هؤلاء الا أن ينشط الخاصة من المسلمين فى نشر كنوز الدين الاسلامى على مسامع الأمة ، وعلى صفحات كتبها ، ليعلم القاصى والدانى أصالة الاسلام ، وليرتدع العدو عن غيه •

وليعلم المدافع أن الله معه يؤازره ويسدد خطاه ، فان الله سبحانه قد بين أن كيد الكافرين الى نحورهم مردود ، وأن ما لهم الذى ينفق فى سبيل الشيطان مفقود ، يقول سبحانه « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون » .

كما بين سبحانه أنه أعطى الحق خاصية الغلبة فقال سبحانه « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » وقال « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

وعلى الأمة أن تعلم أن ما يفعله أعداء الاسلام من النيل من مصادر ديننا هو نوع من حروب الأمم بعضها لبعض .

وأعلم أن هذا السلاح الذى حمله أعداء الاسلام على المسلمين قد أخذوه من نصوص ديننا ، فلقد ورد أن عمر بن الخطاب أرسل الى ابن عباس فقال : كيف تختلف هذه الأمة وكتابها واحد ، ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ؟

فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين انا أنزل علينا القرآن فقرأناه ، وعلمنا فيما نزل ، وانه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يعرفون فيما نزل ، فيكون لكل قوم فيه رأى ، فاذا كان لكل قوم فيه رأى اختلفوا ، فاذا اختلفوا اقتتلوا .

أرأيت كيف يدبر أعداء الاسلام للاسلام ؟ وكيف استطاعوا أن يستخدموا نصوص ديننا فى القضاء علينا ، فطبقوا علينا ما حذرنا منه ديننا .

لقد آن لابناء الاسلام أن يشغلوا أنفسهم بالاسلام قراءة وبحثا وتمحيصا ثم تعليما ونشرا بين المسلمين ، وهذا واجب على المسلمين عامة

وعلى طلاب العلم والعلماء خاصة ، والا فماذا هم قائلون حينما يسألهم الله العليم عن رسالتهم فى الحياة ؟ .

السنة النبوية والسنة الراشدة :

ولقد هالنى أن سمعت هذه الثقافة تردد وسط الدارسين ، اذ وقف دارس يناقش ويصر أن السنة ما أخذ عن رسول الله فقط ، أما ما أخذ عن غيره من ولاة الأمر واجماع الأمة فليس من السنة !!

وفهمت أن هذه فرية من الثقافة الواردة الى أبناء الاسلام من أعدائهم فان من وسائلهم أن يشككوا فيما أثر عن الصحابة ، بل فى أشخاص الصحابة وفى اجماع الأمة ، والقياس ، والاجتهاد . فهذه أمور هدمها يحقق شيئا من أهدافهم .

وأذكر لك هنا قول الرسول ﷺ « فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (١٠٧) . وقوله ﷺ لمعاذ «فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، فقال ﷺ « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله (١٠٨) .

وقال ابن مسعود : من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه

---

(١٠٧) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى المدخل .

(١٠٨) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى وأحمد وفيه كلام كثير خلاصته أنه حديث حسن لغيره ، وقد ذكره ابن كثير فى مقدمة تفسيره ، وحكم على اسناده بأنه جيد . وراجع المدخل للبيهقى ص ٢٠٧ فقرة ٢٥٥ ، ٢٥٦ و ص ١٢٧ فقرة ٧٣ .

فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم (١٠٩) .

وقال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكثار لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين ، والله تعالى يقول « نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (١١٠) .

وقال الربيع : كنا يوما عند الشافعى اذ جاء شيخ عليه جبة صوف وعمامة صوف وازار صوف ، وفى يده عكاز . فقام الشافعى وسوى عليه ثيابه ، واستوى جالسا ، وسلم الشيخ وجلس ، وأخذ الشافعى ينظر الى الشيخ هيبة له ، اذ قال له الشيخ أسأل ؟ قال : ايش الحجة فى دين الله ؟ قال : كتاب الله ، قال : وماذا ؟ قال : وسنة رسول الله ﷺ ، قال : وماذا ؟ قال اتفاق الأمة . قال : من أين اتفاق الأمة من كتاب الله ؟ فتدبر الشافعى ساعة ، فقال للشافعى : قد أجلتك ثلاثة أيام ولياليها ، فان جئت بحجة من كتاب الله فى الاتفاق ، والا تب الى الله ، فتغير لون الشافعى ، ثم انه ذهب فلم يخرج الا بعد ثلاثة أيام ولياليهن ، قال : فخرج الينا فى اليوم الثالث وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه ، وهو مسقام فجلس فلم يكن بأسرع اذ جاء الشيخ وجلس فقال : حاجتى ؟ فقال الشافعى : نعم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » لا يصليه على خلاف المؤمنين الا وهو فرض . فقال : صدقت . وقام فذهب . فلما ذهب الرجل قال الشافعى : قرأت القرآن كل يوم وليلة

(١٠٩) الموافقات ٤ / ٥١ .
(١١٠) اخرجه البيهقى عن مالك كذا فى مفتاح الجنة ص ٢٤ .

ثلاث مرات حتى وقعت عليه (١١١) .

وهكذا يتضح لنا أن السنة مصدر أساسى من مصادر ديننا الاسلامى، أوحاها الله سبحانه الى رسوله ﷺ ، ونص فى كتابه سبحانه على حجيتها ، وأن الأمة مكلفة بالأخذ بها ، وأن البيان الصادق للقرآن الكريم انما هو فيها .

ويتضح أيضا أن السنة الراشدة — ما صدر عن الصحابة — جزء من ديننا فلقد كانوا أدرى الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ويتضح أيضا أن ما أجمعت عليه الأمة فيجب على المسلم أن يتبعه . ان المسلم يأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسول الله ، وأفعال الصحابة واجماع الأمة .

والله الهادى الى الصراط المستقيم

والحمد لله رب العالمين

(١١١) أخرجه البيهقى كذا فى مفتاح الجنة ص ٢٤ .
وراجع فى حجية السنة الراشدة الموافقات ٤ / ٤٨ .